

مؤانف مطوية في السياسة العربية :

هناشم الأتاسي

في سنة ١٩٣٩ وفي عام ١٩٤٣

للأستاذ أحمد رمزي بك

إن الانقلاب الذي قام به المندوب السامي الفرنسي السير جبريل بيو عند تعيينه مندوباً سامياً لفرنسا في أوائل سنة ١٩٣٩ كان يرمي إلى إيقاف الممثل بالماهدين اللتين عقدتهما بلاده والعودة إلى النظام السابق .

وترتب على هذا إبطال الدستور في سوريا ولبنان والعودة إلى تأكيد الاستقلال الذاتي أو الإداري الذي كان يتمتع به كل من جبل الروز وإقليم العلويين .

وبتت فرنسا الأسباب البررة لآخاذ هذه الخطوة على تطرق الفساد إلى الأنظمة البرلمانية القائمة وتدهور الحكم الوطني في كل من البلدين وما سببه من انتشار الرشوة والتفاسخ عن تنفيذ للمفالة، والأسراف في إنفاق الأموال العامة وإضاعتها على الأقارب والجاسيب، ثم نفا أساب الأقليات من ظلم واضطهاد جعل رجالها يستمرخون بمثل فرنسا ويطلبون إنقاذهم مما هم فيه . وكانت هذه الحملات المرغزة موجبة بالقات إلى سوريا وإن كان أصاب لبنان وذاذ منها بحكم اشتراكه مع جازته في إمضاء معاهدة تشبه أو تقارب المعاهدة التي أمضتها فرنسا مع سوريا . ولقد قام الحكم الوطني في سوريا على أساس دستوري سليم وخيّل إلى القائمين بالأمر أنه يكفي إمضاء المعاهدة ثم التصديق عليها لكف اليد الفرنسية عن التدخل في أمهم والسيطرة على الشؤون الداخلية التي أصبحت من اختصاص الحكومة السورية وحدها ولا بشأن لفرنسا فيها بعد أن سلّت السلطات إلى الرجال الذين جاءوا إلى الحكم بمقتضى قواعد الدستور الذي وضته فرنسا أو وافقت عليه ولم يتبادر إل ذهن الوطنيين خطر الرجوع في هذه الاتفاقات بعد إمضائها إذ كانوا على يقين من أن أغلبية الشعب السوري

تؤازرهم وإن البلاد تؤيد بإجماع الاستقلال التام وتأكيد الحياة الدستورية .

وكان جيش الدولة المنتدبة يحتل البلاد وتمنع قوات الأمن العام وغيرها من القوات المسلحة لضباط من الفرنسيين ، وكان أعظم ما تظهر قوة العسكريين في الأماكن المنطرفة على الحدود أو في المقاطعات التي تتمتع بإدارة ذاتية ، وكان ضباط الارتباط الفرنسيون يمثلون قوة الدولة المنتدبة الحاكمة . ولا كان أغلبهم تأتي به فرنسا من المناطق الخاصة للحكم العرفي من مستعمراتها في شمال أفريقيا اتفقوا وجاءوا معهم عقلية وأساليب فرنسا في مستعمراتها ، فتأدى بعضهم في الاستهانة بمثل الحكم الوطني وطن أن من اختصاصه إقامة العدالة - كما يفهمها - وإيقاف تنفيذ الأحكام وإعفاء المحظوظين من دفع الضرائب .

وهكذا برحت الحوادث على تمتد قيام السلطين مساً وأن هذه الحالة لا بد أن تؤول إلى تغلب السلطة الأجنبية المنتدبة التي يدعمها جيش الاحتلال . فهل تمجلت الحكومة الوطنية في تعيين ممثلها في أماكن بيده اعتادت تجاهل وجود حكومة دمشق منذ قيام الانتداب ؟ وهل أحسنت صنفاً في تسليم السلطات المباشرة في المقاطعات التي كانت تتمتع باستقلالها ؟ هذه أسئلة من الصعب الإجابة عنها ، ولكن الذي ظهر من أثر هذه السياسة أن رجال الحكومة المركزية تعرضوا للاهانات في بعض الجهات خصوصاً بعد حدوث اختلاف محافظ الجزيرة الوطني في داخل حدود المقاطعة التي جاء ليحكمها وصعب على الحكومة الوطنية حمايتهم وهكذا ضج السوريون جميعاً من تدخل سلطات الانتداب ومن سكوتها على هذه الأعمال ومن تشجيع بعض ممثلها واشتراكهم في تديرها ، وأقيمت في البرلمان خطب حماسية شديدة اللهجة ولكن سداها لم يتعد الأماكن التي أقيمت فيها ، وكتبت مقالات قوية المحجة ولكن أثرها لم يتعد أعمدة الجرائد التي نشرتها في وسط هذه الظروف القائمة والهجمات المتتالية وجد رئيس الجمهور هناشم بك الأتاسي بين قوتين لا قبل له بأن يوفق بينهما . ولما كانت آمال الشعب السوري وحرياته أمانة في عنقه وكان يستمد أن التساهل مع الفرنسيين ولو مرة واحدة سيؤدي إلى سلسلة لانهاية لها من التفريط في حقوق الوطن ، فضل الاحتفاظ

بين أيدي الجمهور وفيه إشارات معينة إلى ماتم في هذه الحقبة الدقيقة من حياة الأمم العربية والشرقية ، إلا أن موقف مصر الحاسم وأثرها الفعال وما قامت به من أعمال وما كان لوجبة نظرها وسياستها من احترام في المحافل الدولية ، لا تزال حلقة مبهمة غير معروفة للناس ولا للمصريين خاصة. وليس في نيتي أن أسردها في هذه المجلة ، وإنما أكتفي بأن أقول إنني وجدت نفسي مجنناً في هذه الناحية وعرضة لأحاديث ومفاوضات مع أصحاب الشأن من السوريين واللبنانيين ومع ممثل فرنسا وبريطانيا وأمريكا ثم مع السلطات القائمة حينئذ في سوريا وفي مقدمتهم المنفور له الشيخ تاج الدين الحسي وغيره من الوزراء وأهل الرأي .

في تلك الأثناء دارت مقابلات بمصر حضرها الجنرال كارو وزعماء من السوريين واللبنانيين وعند نهايتها عدت إلى بيروت وكان من المفروض أن تبقى للباحثات تحت طي الكتمان ؛ ولكنني فوجئت في يوم من الأيام بزيارة نجل هاشم بك الأمانس التي نقل إلى رغبة والده في مقابلتي مفضلاً أن يتم ذلك في فندق معين بمدينة بعلبك . وقد تمت هذه الزيارة فضلاً في اليوم الذي حدده الرئيس هاشم بك الأمانس فجاءت كأنها مقابلة عرضية في أحد صالونات الفندق المذكور . وفي أثناءها تحدانا عما تم في القاهرة من اتفاق على النقط الأساسية التي تهدد الفرنسيون الأحرار بإتمامها والتي ستكفل بعودة هاشم بك الأمانس رئيساً للجمهورية السورية ليتولى إجراء الانتخابات الجديدة . وقد أبدى هاشم بك الأمانس لي ارتياحه لهذه الفكرة ولم يمترض عليها وتثني .

وبعد برمين تقيت دعوة من وزير المراق القوض حسين بك قديري للنداء بفندق سرفر، وهناك وجدت دولة رياض بك الصلح التي كان مدعواً مني فأخذت ذلك أثناء الطعام يتحدث بلباقته المروعة وذكراته الفائق عن اهتمام الرأي العام الوطني بالمفاوضات التي تولتها مصر وما يرجح لها من خير . وعند نهاية تناول الطعام أبلغني أن الكتلة الوطنية بالشام ترتب الآن شغونها وتجمع شملها كحزب منظم، وأنها قررت ألا ترتبط بشيء لا يأتي عن طريق رئيسها فخامة هاشم الأمانس وطلب إلى والي وزير المراق القوض أن يبلغ كل منا حكومته هذا الإجراء الذي يتفق مع مصلحة البلاد القومية والاستقلالية .

بكرامة البلاد واستقلالها كاملين وبإدب بتقديم استقالته إلى مجلس النواب المثل للامة السورية . وسجل في هذه الاستقالة احتجاجه على فرنسا التي بعد أن قبلت التعاون مع سوريا عادت إلى أساليبها القديمة ورجعت تطبق مجارب جديدة تناقض الاتفاقات التي وقعها بمنلوها وتمهدوا بتنفيذها . وهكذا جاء عمل هذا ديلا على وطنيته وإخلاسه وشجاعته ، ويتدران بمجد الكثير من أمثال هاشم بك الأمانس في تاريخ الأمم الشرقية في القرن العشرين .

ثم قامت الحرب المالية الثانية وجاء الجنرال فيجان وغيره من قواد فرنسا ، وسادت البلاد فترة هدوء وترضت سوريا ولبنان كما تعرض غيرهما لما تبقى بلدان للشرق الأوسط من متاعب حتى عقدت الهدنة فازدادت هذه المتاعب الاقتصادية والمخيمية ، ثم اشتبكت قوات الحلفاء مع قوات فيشي وانتهى الأمر بدخول الحلفاء وخروج فرنسا المهزومة ودخول ممثل فرنسا الحرة أو الثالثة .

وقد قضى هاشم الأمانس هذه المدة يأكلها مستكفاً بمدينة حص لا يتجوز بأي نشاط سياسي ولا يزوره أحد . وأذكر أنني مررت مراراً بهذه المدينة ولم أفسر أن أترك له بطاقتي في كل مرة ، إذ لم يكن في هذا العمل ما يمكن التواخنة عليه ؛ ولكن موطن إدارة الأمن العام الفرنسية ومن بينهم بالغات من أصبح موضع ثقة الحكم الوطني بعد ذلك ، لم يتركوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم دون أن يبدوا عليها من خيالم الكثير من الظنون التي ضمنوها تقاريرهم السرية ، وهي التي ظالمنا شملت السلطات وأعضائها الكثير من هيئتها في كثير من بلاد للشرق الأوسط .

لا بد أن القاريء يعرف ما حدث بعد دخول الحلفاء سوريا ولبنان ، وكيف أعلن استقلال البلاد السورية ، وكيف نودي بالشيخ تاج الدين الحسي رئيساً للجمهورية ، ثم اعتراف مصر بهذا الاستقلال ، ثم ما أعقب ذلك الاعتراف من اتصالات ومفاوضات كانت ترى إلى دعم هذا الاستقلال وجعله متمشياً مع الأعراف العالمية الكبرى التي رسمها ميثاق الأطلسي ونادي بها كل من روزفلت وتشرنشل لكسب الحرب . ولو أن الكثير من مذكرات رجال السياسة والحكم قد نشر بمختلف اللغات وأصبح متداولاً

بعودة معاهدة سنة ١٩٣٦ بل قال بعضهم إن هذه المعاهدة أوسع نطاقاً من المعاهدتين المتين عقدهما بريطانيا مع مصر والبراق، وأنه لو كانت بريطانيا في مكان فرنسا لاستفادت سوريا كثيراً من تطبيق هذه المعاهدة. كنت أقابل هذه التصريحات بالصمت إذ وئذ بأن صاحبه لا يهتم بهذه الناحية... ولا يود الخوض في موضوعها بالذات.

وما دامت مقاضات القاهرة لم تتعرض لموضوع المعاهدة لم يكن من المصلحة إثارة شيء عن ذلك، ما بقى اسم مصر بعيداً عن هذه العناية القاعة. والحقيقة أن الفرنسيين أثاروا الموضوع حينما وجدوا شبه إجماع على العودة إلى إحياء المعاهدة السورية الفرنسية، ولم يبدأ الزعماء في التحرر من أقوالهم إلا عند ما ظهرت في الأفق اتجاهات سياحية معينة؛ ولكن الذي أعله تماماً أن هاشم بك الأناسي كان أول من هاجم المعاهدة أمام الجنرال كاترو. وقد أبلغني الجنرال أن هاشم بك لم يستطع شرح وجهة نظره وتقديم أدلة كافية على اقتناعه شخصياً بهذه الفكرة... ونظر إلى مبتسماً.

وقد كنت على حق في أن موضوع المعاهدة سوف يتخذ دعابة ضد مصر، مع أن الراجح المصرية لم تتعرض بتاتاً لساعة فقد معاهدة جديدة بين سوريا وفرنسا أو إعادة المعاهدة السابقة. ولتلك دهشت حين سمعت شكوى بك القوقلي يصرح في منزله « أن مقاضات القاهرة لم تبدأ أساساً بصلح كبير عليه » فقل كان يقصد بذلك عودة هاشم الأناسي للرئاسة أم موضوع المعاهدة؟ لم يترك لي الحاضرون الوقت الكافي لقراءة ما يجول بخاطرهم، فقد تدخل بسرعة سماعة الجابري، فاعتذر شكوى بك بأنه لم يطلع الاطلاع الكافي على تفاصيل هذه المقاضات وأسرارها.

ولما توجهت بنظري نحو جميل مرادم بك قال إنه سيتول تفصيلها وشرحها لشكوى بك. أما أنا فأنهزت الفرصة وأكدت أمام الحاضرين أن موضوع المعاهدة لم يكن محل بحث في القاهرة. ولست مكلفاً بالدخول في أي شأن يخص العلاقات بين سوريا وفرنسا من هذه الناحية. وقد استشهدت بجميل بك فأقرني على ذلك ولما عدت إلى بيروت طلعت من المصادر المختصة أن الإنجليز المحليين لا يوافقهم لإبرام أي معاهدة بين الفرنسيين وسوريا ولبنان، وأن رأيهم فيما يخص معاهدة ١٩٣٦ هو أنها تؤيد سيطرة فرنسا

ولا أدري لماذا من ناظرى في تلك اللحظة الكثير من الحوادث التي قرأت عنها طويلاً، إذ عدت بمخيلتي إلى أعوام ١٩١٠ حينما كانت البلاد العربية جزءاً من الامبراطورية العثمانية في الأعوام التي قام خديو مصر برحلته إلى الأقطار الحجازية وما أحيطت به رحلته في مختلف البلاد الأوربية من تأويلات ثم مجيء كوشنر إلى القاهرة ووضع حداً لسياسة الوفاق التي رسمها غورست وما يتبع ذلك من مقابلات تمت في دار السيد البريطاني مع بعض زعماء العرب سنة ١٩١٣. ثم برز أملي النزاع القائم بين وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الهند البريطانية في قيادة السياسة العربية وما تمخضت عنه سنة ١٩١٦ من قيام الملك حسين بن علي وحروب لورنس المروعة والمناداة بفصل الأول ملكاً في دمشق؛ ثم تخلت اتفاقات سيكس - بيكو والتفاهم الذي تم على حصص البترول العراقي ومجرى عهد بلفور وإنشاء الوطن القومي الصهيوني ومقاضات الوسطاء^(١) بين فيصل الأول والدكتور وايزمان السيد الصهيوني، واستجبت ذكري الليالي الطويلة التي أمضيتها في فندق الملك داود بمدينة القدس استمع فيها إلى أحاديث رجال من البريطانيين واليهود وأنصت إلى أنصار الهاشميين وأنصار الحاج أمين الحسيني. لقد أمضيت سنتين بقلعطين تمر أمام ناظرى الحوادث والمقابلات بين مختلف الرجال الذين يضمنون الخطط ويجمعون ثم ينفضون إذ كانت توضع أسس دولة إسرائيل... على احتمالات الأخطاء التي سوف يرتكبها رجال السياسة من العرب - لقد مر كل هذا أمامي عند تناول الطعام - ولقد تزلت من سوافر إلى بيروت وأنا فير صرحنا لمقابلي هذه إذ كنت أصر بأننا على أبواب مفاجآت جديدة... وفلا تحقق هذا الشور الذي قلنا أخطأ فيه؛ إذ أطل علينا شهر مارس سنة ١٩٤٣ وهو لشهر الملوء بالحوادث التي جاءت متتابعة متلاحقة، فبدأ الجنرال كاترو يجرى في تنفيذ ما اتفق عليه بالقاهرة فكثرت تنقلاته بين بيروت وحلب وحمص، وكان يؤكد في أحاديثه أنه ينفذ قرارات حكومة فرنسا المقاتلة المثلة في اللجنة الفرنسية بالجزائر، وأن التلميحات التي لديه من شرائطها قيام معاهدة بين فرنسا ودولتي سوريا ولبنان. وكان يبدو لي من حديثي من أغلب الزعماء الذين قابلتهم أنهم يرحبون

(١) هؤلاء الوسطاء أسماؤهم معروفة مشهورة.